سِمَاتُ اللُّغةِ العربيِّةِ

-ثوابتُ الأصالةِ ومعالمُ التَّجديد-

Features of the Arabic Language

- Constants of Originality and Signs of Renewal-

بلال جندل‡

تاريخ الاستلام: 2020 /12/10 تاريخ القبــول: 2021 /03/17

الملخَّص: إنَّ اللُّغة العربيَّة لغة تميَّزت عن لغات العالم جمعاء، وجمعتْ من الصِّفات وتفرَّدتْ بها، وقد كان لهذا التَّفرد سجل علميٌّ حافل، حيثُ حملت بين دفّتيها تاريخاً علميًّا وحضاريًّا كبيراً؛ وليس تأخرها اليوم عن الأسبقيَّة في مجال التَّقدُّم العلميِّ، والرقميِّ عن ضعف وقصور بها، وإنّما هو لضعف حامليها عن جعلها لغة العلم والصِّناعات، ولغة البحث في التِّكنولوجيات، فلا يمكن أن تكون اللُّغة محفوظة بنفسها، وإنّما يسعى الناطقون بها لتطويرها، وتجديدها في كلّ وقت وحين؛ فالعربيَّة لها من السِّمات ما يجعلها تتماز عن غيرها من اللّغات الأخرى، وهذا ما حاولت هذه الورقة البحثيَّة أن تقاربه، وقد خَلُص هذا البحث إلى جملة من النتائج أبرزها أنّ اللُّغة العربيَّة لها سِمَات جعلتها تحافظ على أصالتها، ولا تتخلَّف عن ركب التَّطور المعاصر.

الكلمات المفتاحيّة: اللُّغة العربيَّة؛ سمات؛ تجديد؛ أصالة.

Abstract: The Arabic language is a language that was distinguished from the languages of the whole world, and it gathered from the characteristics and was unique to it, and this uniqueness had a rich scientific record, as it carried a great

‡جامعة آكلي محند أولحاج –البويرة–الجزائر،البريد الإلكتروني: djendelb@gmail.com
(مؤلّف مرسل)

scientific and civilizational history. Today, its lag behind precedence in the field of scientific and digital progress is not due to its weakness and shortcomings. Rather, it is due to the weakness of its holders in making it the language of science and industries, and the language of research in technologies. The language cannot be preserved by itself, but rather its speakers strive to develop and renew it at all times. The language cannot preserved itself, but rather the speakers of it strive to develop and renew it at all times. Arabic has characteristics that make it different from other languages, and this is what this research paper tried to approach, and this research concluded with a number of results, the most prominent of which is that the Arabic language has features that made it preserve its originality and not lag behind in contemporary development.

Key words: Arabic language; Features; renewal; authenticity.

مقدِّمة: تعدُّ اللُّغة العربيَّة اليوم من أكثر اللُّغات انتشارا واستعمالا في العالم، وقد تخطّت مجال البحث في العلوم الإنسانية إلى العلوم البحتة والتَّجريبيَّة منذ القديم في الحضارة العربيّة الإسلاميّة، وإن لم تكن لغة البحث في مجال التُّكنولوجيات والصناعات المتطوّرة في عصرنا هذا، إلاّ أنّ ذلك ليس لقصور فيها، أو عجزها عن تأدية ذلك، وإنّما قانون التّداول والاستعمال قد فرض قيوده في تحكيم استعمال الإنجليزية أو غيرها من اللُّغات دون العربيّة، وبحسب جنسية المُصنِّع الذي يفرض لغته كما يحفظ حقوق الإنتاج لما يُبْدِع. فلو تفوّق العرب في بلادهم في مجال التِّكنولوجيات والرِّقميات، وفي الإنتاج المُتَنَوِّع في الشَّابكة لكان الأمر كفيلا بأن تكون العربيّة رائدة البحوث الجادة في المجالات العلميَّة المتطورّة، وإن كان –اليوم– الكثيرُ من الباحثين قد قدّموا إسهامات كبيرة في مجالا البحوث اللُّغوية المعاصرة كاللِّسانيات الحاسوبيَّة، والتَّعامل مع اللُّغة العربيّة في زمن العولمة والتَّطور الرَّقمي السَّريع كأعمال العلاّمة عبد الرحمن الحاج صالح، وما قدّمه أستاذنا وشيخنا صالح بلعيد من بحوث، حيث حصر كل عمله في تطوير اللغة العربية، والسّعي في أمنها، وغيرهما من البَحَثَةُ في الوطن العربي وغيره. والعربيّة من أقدم اللُّغات السَّامية؛ فعراقتها التّاريخيّة، وطول عهدها جعلها تملك ما ليس في غيرها، وسموها عن اللُّغات له أسبابه ومبرراته، فقد حوت من الخصائص، والسّمات

ما لم يكن في اللّغات الأخر، وإنّ كان بعض اللُّغات اقترضت منها بعض الصّفات، ولكنّها انمازت دونهنَّ، وفرعت عنهنّ بأصول وسمات لم تفارقها منذ ظهورها منطوقة كانت أو مكتوبة، وسأحاول في هذه الورقة البحثيّة استخلاص بعض تلك السّمات، مجيبا على السؤال الآتي: ما هي أبرز سمات اللُّغة العربيّة التي جعلتها وتجعلها تتماز عن اللُّغات الأُخر؟ كما يقوم البحث على الافتراض الآتي.

– للغة العربيّة سمات وخصائص لا توجد في اللّغات الأخرى جعلها تبِزُّ عن غيرها، وتفرَعُ عليهنَّ.

بعد تتبع واستقراء ظهر لي أنّ اللُّغة العربيَّة حوت الكثير من الخصائص، ويشهد لهذا تاريخيًّا ما حملته هذه اللُّغة العربيّة من إرث معرفي ضخم، ورِكَاز علميٍّ كبير في قرون متطاولة من تشكّل الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة، فلو بُنيّت هذه اللُّغة على غير أسس علميَّة متينة لما لبثت حاملة لفكر إنساني عميق، هو أساس وجوده، وسرُّ بقائه وسبب تخليده، ولا يمكنني في هذا المقام أن أحصر كلَّ الصِّفات، وأشرح كلّ السِّمات وذلك أنّ السيمياء أو العلامة لهي كالدّليل الذي يعرف به الشيء، ويُفرق به عن غيره، وإنّما اكتفيت من ذلك بما ظهر لي أنّها سمة بارزة في اللُّغة المجاهدة، ومن أبرز تلك السِّمات:

1- العربيّة لغة الإبانة والوضوح؛ أخصّ صفات اللُّغة العربيّة الإبانة، فقد نزل القرآن الكريم تبيانا للنَّاس، فيه هدى ونور، لذا اقتضت الحكمة الكونيّة أن تكون العربيّة لغة أخر الكتب السماويّة، وأفضل النبوّات والرسالات، وتبرز حكمة ذلك في أنّ الله تعالى أرسل رسلا إلى أقوامهم بما يفهمون من لغة، فلو خاطبهم بغيرها لكان ذلك مانعا لهم من أي يفهموا، بلْهَ أن يبلغوا، وقد ورد هذا في القرآن الكريم كثيرا، كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾ [إبراهيم: 04] ولابن عطيَّة كلام يشرح ويفصل الحكمة من ذلك لما قال: «هذه الآية طعن ورد على المُسْتَغْرِبين أمر محمد ﷺ، أي لست يا محمد ببدع من الرُّسل، وإنَّما أرسلناك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور على عادتنا في رسلنا، **في أن نبعثهم بألسنة أممهم**

ليقع البيان والعبارة المتمكِّنة، ثم يكون سائر الناس من غير أهل اللسان عيالا في التبيين على أهل اللسان الذي يكون للنبي، وجعل الله العلة في إرسال الرسل بألسنة قومهم طلب البيان ثم قطع قوله: فَيُضِلُّ أي إن النبي إنما غايته أن يبلغ ويبين، وليس فيما كلف أن يهدي ويضل، بل ذلك بيد الله ينفذ فيه سابق قضائه، وله في ذلك العزة التي لا تعارض، والحكمة التي لا تعلل، لا رب غيره.

قال القاضي أبو محمد: فإن اعترض أعجمي بأن يقول: من أين يبين لي هذا الرسول الشريعة وأنا لا أفهمه؟ قيل له: أهل المعرفة باللسان يعبرون ذلك، وفي ذلك كفايتك. فإن قال: ومن أين تتبين لي المعجزة وأفهم الإعجاز وأنا لا أفقه اللغة؟ قيل له: الحجة عليك إذعان أهل الفصاحة والذين كانوا يظن بهم أنهم قادرون على المعارضة وبإذعانهم قامت الحجة على البشر، كما قامت الحجة في معجزة موسى بإذعان السحرة، وفي معجزة عيسى بإذعان الأطباء.»[1] لأنّ الكثير من المعترضين اليوم يرون بعنصرية العرب تجاه غيرهم من العجم ممن لم ينشاؤوا في بيئة عربية، فيكون ذلك حائلا لهم على فهم اللغة العربيّة فيرون أنّهم غير مكلفين بفهم الخطاب العربي، فيقصرون في تعلمه، وحفظ دروسه، بل ذلك واجب على العرب والعجم بتفاوت في الدَّرجات، واختلاف في المستويات كل بحسب مقامه، فلا يجوز أن يتعبّد الله في الصلاة بغير اللُّغة العربية، لذا تعيّن تعلم القدر الكافي منها مما تصحُّ به العبادة، وقد يعترض أحدهم ويقول: إنّ اختلاف الألسنة من آيات الله فلِمَ اقتصرت صحة العبادة على تعلّم اللغة العربيّة، جواب ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾[الروم: 22] فلم يكن اختلاف الألسنة آية شرعيّة وإنّما هو آية كونيَّة، فكما اختلفت قيس عن تميم، وأسد عن هذيل في لغاتها، كان لزاما عليها أن تفهم اللّسان الذي جاء به القرآن، لذا كان لسان قريش أفصح الألسنة وأقربها إلى جمع العرب على كلمة سواء، ومما يدلّ على صفة الإبانة التي تميزت بها اللّغة العربيَّة قوله تعالى: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل: 103] أي أنّ لسان الدّين الإسلامي هو العربيّة المُبِيْنَة الواضحة، فكان وضوحها وإبانتها عن مراد الله من أحكامه وتشريعه حجّة على العرب ملزمة لمن

ترك اتباع هذا الدّين، فقد جاءهم بما لا قبل لهم بردّه، وحتى العجم يسعهم تعلّم هذا اللّسان لأنّ القرآن لم يكن للعرب وحدهم، بل كان للناس عامة، ويشمل العموم هنا الأعاجم كذلك، وقوله تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء: 195] فلو لم تكن الإبانة سمة من سماتها لما أنزل الله بها آخر الكتب على أفضل الرُّسل.

2- **العربيَّة لغة في لغات**، من حكمة الله تعالى ألم يكن العرب بلغة واحدة، بل لغتهم الأم العربيّة، وانقسموا إلى بطون وأفخاذ، وقد كان كل يقوم يعرف حروفا وينكر منها، وانقسموا إلى عرب عاربة ومستعربة، إلى عرب الجزيرة العربية وعرب اليمن، أي إلى عدنانية وقحطانية، وقد كانت طيِّءُ مثلا لا تقول في (أل) التَّعريف ألفا ولاما، بل ألفا وميما، ومن ذلك ما ورد أنَّ أعرابيا جاء إلى الرسول ﷺ فقال له: **أمن أمْبر أمْصيام في أمْسفر**، فقال ﷺ: «**ليس من أمْبر أمْصيام في أمسفر**»، لذا قضت حكمة الله تعالى أن ينزل القرآن على سبعة أحرف، فمنهم من كان يهمز، ومنهم من كان يرى الهمزة من التّهوع أو التقيؤ ولا يلفظ بها، لذا فاختلاف القراءات القرآنية رحمة لأمة العرب، فقرأ بعضهم: المؤمنون، وبعضهم المومنون، وقرأ بعضهم شئت، وبعضهم شيت بالإبدال، وقرأ بعضهم شأن وبعضهم شان، وقرأ بعضهم فؤاد وبعضهم فواد، وكان بعضهم يدغم الحروف المتشابهة الصفة أو المخرج، فقرأ مثلا السُّوسي عن أبي عمرو بن العلاء (وهو من نحاة البصرة) بالإدغام الكبير مثال ذلك: ﴿ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [يوسف:04] فيدغم الرائين واحدة ساكنة في الآية ، لذا كان من شروط الرواية القرآنية الصحيحة أن توافق وجها صحيحا من لغة العرب، وليس شرط أن يكون كلُّه بلغة قريش، لأنّ قريشا نفسها بطون وأفخاذ، وليس تلك تأديات لهجية وإنّما هي لغات يصح الاستشهاد بها، فليس هناك من لغات العالم اليوم من يضاهيها في هذه الخصيصة، فكلّ اللُّغات تنقسم إلى اللُّغة الرَّسمية، وما عدا ذلك فهي تأديات لهجية خاضعة للحدود الجغرافيَّة، أوالجهوية السُّكانيَّة، ومثال ذلك في ولاية كيرالا الهندية، ماهي اللُّغة الرسميَّة المعتمدة؟ هي المالامية طبعا؟ ولكن هل هناك لهجات يصح التَّواصل بها؟ نعم هنا لهجات. وهل يمكن عدها لغات لها المواصفات التي تجعل منها

لغة قائمة بقواعدها، وأصولها المحكمة؟ الجواب هي لهجات محليّة يسهل بها التَّواصل وقضاء الحاجيات اليومية والتعاملات بين البشر. فلو عددنا كل اللَّهجات الهنديَّة لغات لكان من الصعب أن يتفقوا على لغة رسميَّة للبلاد، وبالتي تحصل هناك الفوضى، لذا تعدد اللُّغات في اللُّغة العربيَّة سمة لا يمكن أن تضاهيها فيها لغة.

3- العربيّة لغة لا يحيط بها جميعا غير النَّبي ﷺ؛ فهي لغة لا يحيط بجميع لفظها، وكلّ معانيها وتراكيبها، وجوامع كلمها غير نبيّ، فقد قال النّبي ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم»[2] قال القاضي عياض: «وَأَمَّا فَصَاحَةُ اللِّسَانِ، وَبَلَاغَةُ الْقَوْلِ، فَقَدْ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ذَلِكَ بِالْمَحَلِّ الْأَفْضَلِ، وَالْمَوْضِعِ الَّذِي لَا يُجْهَلُ، سَلَاسَةَ طَبْعٍ، وَبَرَاعَةَ مَنْزَعٍ، وَإِيجَازَ مَقْطَعٍ، وَنَصَاعَةَ لَفْظٍ، وَجَزَالَةَ قَوْلٍ، وَصِحَّةَ مَعَانٍ، وَقِلَّةَ تَكَلُّفٍ.

– أُوتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَخُصَّ بِبَدَائِعِ الْحِكَمِ، وَعِلْمِ أَلْسِنَةِ الْعَرَبِ، فكان يُخَاطِبُ كُلَّ أُمَّةٍ مِنْهَا بِلِسَانِهَا، وَيُحَاوِرُهَا بِلُغَتِهَا، وَيُبَارِيهَا فِي مَنْزَعِ بَلَاغَتِهَا، حَتَّى كَانَ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَسْأَلُونَهُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ عَنْ شرح كلامه، وتفسير قوله.

– من تَأَمَّلَ حَدِيثَهُ، وَسِيَرَهُ، عَلِمَ ذَلِكَ وَتَحَقَّقَهُ.

– وَلَيْسَ كَلَامُهُ مَعَ قُرَيْشٍ وَالْأَنْصَارِ، وَأَهْلِ الْحِجَازِ، وَنَجْدٍ، كَلَامِهِ مَعَ «ذِي الْمِشْعَارِ الْهَمَدَانِيِّ» «وَطِهْفَةَ النَّهْدِيِّ» و«قطن بن حارثة العليمي» و«الأشعث بن قيس» و«وائل بْنِ حُجْرٍ الْكِنْدِيِّ» وَغَيْرِهِمْ، مِنْ أَقْيَالِ حَضْرَمَوْتَ، وَمُلُوكِ الْيَمَنِ.»[3] فيمكن لأي أحد أن يجمع من اللُّغات الأخرى ما شاء استيعابا ومعرفة وأداء، ولكنّ السمة البارزة في اللِّسان العربي أنّه لم يُجْمَع لأحد غير نبي، فليس للتميمي أن يجمع ألسنة إلى لسانه، ولم يكن ذلك في مقدوره، وليس له به اشتغال، وذلك لسعة لغة العرب وشمولها لكل الأطياف القبليَّة، قال الشَّافعي: «ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا، وأكثرها لفظا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه غير نبي، ولكنّه لا يذهب منه شيء على عامَّتها، حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه»[4] وهذا ما ليس في اللغات الأخرى.

– العربيَّة مفتاح الدّين؛ إنّها لغة الدّين، وحصنه المتين، وطريقه المُسْتبين، لذا كان تعلّمها فرضا واجب على كلّ من أراد أن يدخل في دين الإسلام، وليس معنى هذا أنّ الله لا يفهم عن خلقه إن هم دعوه بغير اللُّغة العربيَّة، ولكن شرفها بشرف هذا الدّين، لأنّ شرف العلم بشرف المعلوم، وقد كان الأوّلون يحثون على تعلّم اللُّغة العربيّة، وممَّا

أُثر عن عمر بنِ الخطَّابِ ؓ أنّه قال: «تَعَلَّمُوا الْعَرَبِيَّةَ، فَإِنَّهَا تَزِيدُ فِي الْمُرُوءَةِ»[5]ويرون تعلّمها شرفا وفخرا، لأنّها معجزة الإسلام الخالدة، لذا كانت هي المفتاح لتعلم هذا الدّين والوسيلة إليه، فصارت في حقّ من أراد أن يفهم أحكامه ومعانيه واجبا عينيا، قال الشافعي: «فعلى كلّ مسلم أن يتعلّم من لسان العرب ما بَلَغَهُ جَهِدُه، حتَّى يشهد به أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمدا عبده ورسوله، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذّكر فيما افترض عليه من التكبير، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك»[6]

4- لغة المرونة والتّجدُّد؛ فهي لغة مرنة، لا هي لغة تراثيّة قد ضربت عليها العنكبوت بنسجها، وعفى عليها الزمن، وأكل الدّهر عليها وشرب، ولا هي حداثيَّة نسيت أصلها، وترفعت عن جرثومتها، وتنكرت لأصولها، فهي سابقة بالفضل، وآخرة بالوصلة.

5- العربيَّة شرف للمتحدِّثين بها؛ فهي ترفع قدر متكلّمها، وتجعل له من المنزلة بقدر تمسُّكه بلغة القرآن، ولكونه حارسا على لغة حملت أفضل الشَّرائع، وأكمل الدِّيانات وأعظم النُّبوات، فلم يكن متكلّمها ينتسب إلى مرتبة التَّعبير، والإعراب عن مكنونات نفسه، وخلجات شعوره، ويحقق بها تواصله مع غيره، مما يحسنها، ويجري في روابيها ويرد حياضها عطشا، ليروى من معين بلاغتها الصافية، ومن عذب موردها الزُّلال فيحسو الرشفة بعد الرشفة، ليبلغ شواهق الفصاحة، ويتفيؤ بظلال الملاحة، ويأنس في دوحة البراعة.

6- العربيّة لغة جمعت القلوب على حُبِّها، فقد اجتمع على حبّها العرب أصالة، والعجم انتسابا، فقد احتفى بها العجم، وتكلّموا بها، ودافعوا عن حياضها، فهذا أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، وابن درستويه، وابن خالويه، والبُّخاري، والنَّيسابوري والترمذي، والنسائي القزويني، والسجستاني، والفارسي، والأندلسي، فكلّ هؤلاء على اختلاف بلدانهم جمعتهم وشيجة العربيَّة، ورباطها القويُّ.

7- العربيَّة لغة الاقتصاد الحرفيِّ والصَّوتي؛ فاللُّغة العربيَّة دون جميع اللُّغات لا تنقسم فيها الحروف إلى صوامت وصوائت، فكلُّ مكتوب فيها منطوق، وليس كلّ منطوق مكتوب، ففي اللُّغة العربيَّة مثلا لا يكتب التنوين في الأسماء ونحن ننطقه في الكلام، مثال ذلك: هذا جزائريٌّ، وأكرمت جزائريًّا، ومررت بجزائريٍّ، فقد نطقت نون

التنوين في آخر كلمة (جزائري) في حركاتها الثلاث: الفتحة، والضمة، والكسرة ولا أثر خطيٌّ لهذه النون، وهذا من الاقتصاد، وقد يظهر الأمر جليًّا بمثال آخر: لنأخذ مثلا كلمة:

1. تعهُّد باللغة العربيّة.
2. Engagement باللُّغة الفرنسية.
3. Engagement باللُّغة الانجليزية.

فلو تأملنا الكلمات الثَّلاث لوجدنا في اللَّفظ العربي اقتصادا صوتيًّا كبيراً، فحرف الهاء مضعَّف في اللَّفظ فينطق في الأصل هائين: هاء أولى ساكنة، وثانية متحرِّكة، ولم يكتب الحرفان، وعوّض أحدهما بعلامة التَّضعيف (ّ) وفي التَّرجمتين من الإهدار الصوتي والخطِّي ما لا يخفى، لذا فإن نظام الصَّوتيات في اللَّغة العربيَّة نظام قائم على الاقتصاد وفي اللُّغات الأخرى قائم على الإهدار والإسراف. ونقول مثلا في اللُّغة العربيَّة لما يلبس عقب الجلد مباشرة: شعارا، ويقال في اللُّغة الفرنسيَّة: sousvetement، وفي اللُّغة الانجليزية underwear ، ونقول في اللُّغة العربية: ضحك وله مراتب ومنها القهقهة والتبسم، ونقول في الفرنسية sourire، فهي لغة اقتصادية وغنيَّة.

8- العربيَّة البلاغة؛ تتسم اللُّغة العربيَّة بمظاهر بلاغية راقية، لا توجد إلا نادر وبصورة ضعيفة في غيرها من اللُّغات، ومن أميز الظواهر البلاغية ظاهرتي الاستعارة والكناية، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة: 182] فشبه الله عزوجلَّ معاشرة الرجل أهله واستماع بعضهما ببعض لباسا، وذلك لأنَّه لا يكون إلا في ستر، ولا يجوز أن يكشف أحدهما منه شيئا وقد بحثتُ عن ترجمة تؤدي هذا المعنى الوارد باللُّغة العربيَّة في لغات أخرى، فوجدت أنها تذكر لفظ الوِقاع، أوتترجم المعنى بما لا يفي بالمعنى المطلوب والمقصود، فتقاصرت كل اللُّغات عن تأدية المعنى الحقيقي الوارد بالعربية. والمثال الثاني قوله تعالى: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [مريم: 28] ففي الآية تعريض بلفظ الزِّنا، لأنَّ مريم جاءتهم بولد من غير زواج، فلما صُدموا بما رأوا قالوا ما قالوا. ففي هذه الكناية استلزامات كثيرة، وتأويلات ووسائط عدة فزاد ذلك من جمال الكناية وكان أدعى إلى التَّعريض، وقالوا: في المعاريض مندوحة عن الكذب.

9- العربية لغة التَّطور؛ وهذا أمر متجذر فيها تاريخيًّا، حيث تتطوَّر المعاني فيها بحسب المقتضيات التَّاريخية والعلمية، ومثال ذلك لفظ «الصَّلاة» فقد كانت في جاهليتها يُعنى بها الدعاء وقد ورد هذا في قول الشاعر:

تقول بنتي وقد قربت مرتحلا يا رب جنب أبي الأوصاب والوجعا

عليك مثل الذي صليت فاغتمضي نوما فإنّ لجنب المرء مضطجعا

أي مثل الذي دعوت، فإذا عالجنا اللَّفظ تاريخيا لا يمكن أن يحكم هنا أنَّ «الصلاة» هنا هي العبادة، ولما جاء الإسلام تطور هذا اللَّفظ ليشمل معنى أوسع فصارت بمعنى العبادة المخصوصة بالأفعال المخصوصة المفتتحة بالتكبير والمختتمة بالتسليم، وقد وردت بمعناها اللغوي في قوله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إنّ صلاتك سكن لهم والله سميع﴾ [التوبة:103] وكذلك الزكاة، فالصّدقة في الآية هي الزكاة التي تؤخذ من أموال الأغنياء وتردّ إلى الفقراء، وقد وردت في الآية بمعناها اللَّغوي، ومعناها الاصطلاحي، إذا قال الله تعالى﴿ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ ﴿١٠٣﴾ ﴾ لذا كان التَّطور المعنوي سمة من سمات اللُّغة العربيَّة، وفي هذا ردٌّ على من اتَّهمها بالجمود، وأنَّها لا يمكن أن تكون لغة العلم والحضارة، فقد واكبت اللغة العربيَّة الثورة العلمية الرقمية والتِّكنولوجية فقد اشتغلت الكثير من المؤسسات اللُّغوية كالمجامع اللغوية وغيرها على إيجاد مكافئات لما يستحدث في باب الصناعات فقد سمو المركبة سيارة، وآلة التبريد ثلاجة، وسمو الجسم المحلّق في السماء الذي ينقلنا من بلد إلى آخر طائرة، فليس يظهر مخترع من المخترعات إلاّ وقد هموا إلى إيجاد تسمية في اللُّغة العربيّة، وقد قال في هذا المعنى حافظ إبراهيم شاعر النيل في قصيدته عن اللغة العربية التي تشكو حالها، وتنعى نفسها بين أهلها وفي بيتها قائلة:

وسعت كتاب الله لفظا وغاية وماضقت عن آي به وعظاتِ

فكيف أعجز اليوم عن وصف آلة وتنسيق أسماء لمخترعاتِ

وقد شهد المتخصصون بمرونة اللغة في استحداث الأنظمة الرَّقمية كالمواقع في الشَّابكة، ومدى استجابتها لأنظمة البرمجة الخاضعة للحسابات الرياضية الدقيقة، وهي لغة حيّة ومن أكثر اللُّغات انتشارا واستعمالا في العالم. فكما كانت فخر الجاهليين إذا

لم يكن لهم فخر أعظم وأعز من فخرهم بلسانهم، وبحسن البيان، والتفنن في أساليب الفصاحة، وروضات البلاغة، كان الفخر بالانتساب إليها عند المسلمين أقوى وأكثر لما لهذه اللغة من علاقة تربطها بالقرآن الكريم الذي هو دستور الحياة والشريعة، فلا يمكن أن تضيق بعدما حملت على أكتافها، ولم تعي بحمل رسالة أشفقت السموات والأرض والجبال أن يحملنها، فلا يمكن أن تتأخر في حمل معارف العلوم البحتة الفيزياء والرياضيات والطب، فلنا نحن العرب أمثلة كثيرة من ذلك ومن هؤلاء: جابر بن حيان والخوارزمي، وابن سينا وغيرهم مما نبغوا في علوم المادة من علماء العرب أصالة أو انتسابا، ولا تزال الكثير من الدول العربية المسلمة تعلم طلابها هذه العلوم باللُّغة العربيَّة، مثل سوريا والعراق وهذا بفضل العمل الدؤوب للمجمع العلمي العراقي، ومجمع اللُّغة للعربيَّة بدمشق على صناعة المعاجم العلميَّة المتخصصّة، ومجمع مكة المكرمة للغة العربية، الذي يجدد قراراته في كل أمر مستحدث، ويصدر فتوى تخصّ الأمور المستجدة والنازلة في اللُّغة العربيّة، ومن تلك القرارات اللُّغويَّة قرار يضبط تعريب وترجمة تسمية المترو بـ«قطار الأنفاق» والترام بـ«قطار الشوارع»، وهو القرار الثاني عشر المؤرخ في 2017/01/19[7]، وكذا العمل الجبّار الذي يبذله المجلس الأعلى للغة العربيّة في الجزائر، بما صنعه من معاجم متخصصة لوزارات مختلفة في إطار تنفيذ مشروع التعريب، والدّورات التكوينيّة التي ينظّمها لتحسين مستوى المستخدمين في القطاعات العموميّة كالبريد والمواصلات، والإعلام والاتصال وغيرها.

10- العربيّة حاضنة العلوم، ومبلّغة المعارف؛ فمن سمات اللُّغة العربية تنوع علومها، وكثرة معارفها، والمشتغلين في حقلها؛ فهي النَّحو وأصوله، واللُّغة ومعاجمُها وفقهُها، ومنها الصَّرف وقياساته، والبلاغة وفنونها، والعروض وأوزانه، ولا تنفك العلوم محتاجة إليها، وهي في استغناء عنها، ومن أخص السِّمات في هذه الخصيصة علم النَّحو الذي يمثل بمادته وأصوله سمة متفردة في هذه اللُّغة دون غيرها من اللُّغات، وإن ادَّعى بعضهم أنّ في كلّ اللُّغات نحوٌ، فليس نحوُ العربيَّة إلا استقراء لكلام العرب، وردّ الخارج منه إليه، وليس هو قوالب موضوعة سلفا ليحتذيها المتكلم ليصل إلى صحيح الكلام كما هو موجود في باقي اللُّغات، وإنَّما الذي يميز هذه اللُّغة أنَّها ولدت في أحضان أمَّة أميّضة، حتّى جاء العلماء في القرن الثَّاني للهجرة فوضعوا الأسس الأولى

لهذا العلم، ثمّ تطور تطورا تدريجيا وقد كان مجنونا حتّى عقّله ابن السّراج في كتابه (في أصول النحو) كما قال ياقوت الحموي والسيوطي، فالفقيه يحتاج النَّحو، والأصولي يحتاج النحو، وكذا المحدِّث، والمفسِّر، بل حتّى المؤرخ والفيلسوف، قال الزّمخشري: «ولعلَّ الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها حيث لم يجعل حيرة رسله وخير كتبه في عجم خلقه ولكن في عربه لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج وزيغا عن سواء المنهج. والذي يقضى منه العجب حال هؤلاء في قلة إنصافهم وفرط جورهم واعتسافهم. وذلك أنهم لا يجدون علما من العلوم الإسلامية فقهيا وكلامها وعلمي تفسيرها وأخبارها إلا وافتقاره إلى العربية بين لا يدفع ومكشوف لا يتقنع. ويرون الكلام في معظم أبواب أصول الفقه ومسائلها مبنيا على علم الإعراب والتفاسير مشحونة بالروايات عن سيبويه والأخفش والكسائي والفراء وغيرهم من النحويين البصريين والكوفيين والإستظهار في مآخذ النصوص بأقاويلهم والتشبث بأهداب فسرهم وتأويلهم. وبهذا اللسان مناقلتهم في العلم ومحاورتهم وتدريسهم ومناظرتهم. وبه تقطر في القراطيس أقلامهم. وبه تسطر الصكوك والسجلات حكامهم. فهم ملتبسون بالعربية أية سلكوا غير منفكين منها أينما وجهوا كل عليها حيثما سيروا. ثم إنهم في تضاعيف ذلك يجحدون فضلها وتعليمها ويدفعون خصلها ويذهبون عن توقيرها وتعظيمها وينهون عن تعلمها وتعليمها ويمزقون أديمها ويمضغون لحمها فهم في ذلك على المثل السائر الشعير يؤكل ويذم ويدعون الاستغناء عنها»[8]

11- العربيَّة لغة الجذور لا السَّوابق واللَّواحق، ومن سمات العربيَّة أنها لغة جذرية فالجذر الواحد يصاغ منه الفعل بمختلف دلالته الزَّمنية، وكذا الاسم ومشتقاته، وغيرها من اللُّغات لصقية وهناك لغة صورية حيث الصورة الواحد تمثل اسما كامل كاللُّغة الصِّينية مثلا، فتتكون الكلمة في العربية من الحروف، وتكوين الكلمة في غيرها من المقاطع الصوتية، ومثال ذلك: الجذر (كَتَبَ) فيقال في الاشتقاق منه: يكتب وكاتب ومكتوب وكتّاب وكتاب وكتابة وكتاتيب وكتيب وكتب ومكتبة وكتبة وكتبة؛ وفي الانجليزية مثلا يختلف جذر الكتابة عن جذر الكتاب أو المكتبة فيقال /to write writter / book/ bebiotheque فرغم كون الكتاب، وفعل الكتابة من جنس فعلي

واحد إلاَّ أنَّ الجذر مختلف فهم لا يعبرون عن الفعل ونفيه إلاَّ باستخدام السوابق واللواحق. وهذه من أسمى سمات اللُّغة العربيَّة وأدقِّها.

12- العربيّة حاضرة في التَّاريخ، ممتدة في الزَّمن؛ ومن سمات اللُّغة العربية الامتداد عبر الزمن، فنحن اليوم نفهم ما قاله الشعراء الجاهليون، وما قال ☺ قبل أكثر من أربعة عشر قرنا، فلها امتداد تاريخي، وتأصُّل في الألسنة، ما لا يوجد في لغات أخرى فالإنجليزي مثلا لا يفهم ما قاله شكسبير في القرن الرابع عشر ميلادي، وقد جعلوا اللُّغات عندهم مستويات وصنفوها حسب تطورها التَّاريخي؛ وحكموا على الكثير من الكلمات بالموت لأنَّها خرجت من دائرة الاستعمال والتَّداول، وقد حاول بعض اللِّسانيين العرب تطبيق هذه النَّظريات على اللُّغة العربيَّة، وما عملوا أنه لغة حية بحياة القرآن، فلم تزل لصيقة به، وهي لغة الشُّعور، والتَّعبير، والعلم وكل مجالات الحياة العربية الإسلامية، فرغم تطاول الزَّمن عليها إلاَّ أنَّها بقيت متماسكة الأصول، ثابتة لا يعتريها خلل ولا عطب، وذلك لسرٍّ بديع، وأمر عجيب لأنَّ قواعدها لم تستقرأ إلا بعد ثباتها في الألسنة وما تلك القواعد إلا توصيف لقوانين الكلام الصَّحيح، بعد دخول الأعاجم ممن لم يولدوا بين العرب فظهر اللحن والخطأ، وفشا واستفحل وانتشر، فخاف المسلمون العرب من وقوع الخطأ في كتاب الله تعالى وفي فهم معانيه فوضعوا القواعد، وضبطوها ضبطاً للسان من الزَّلل، وفي ذلك عدَّة قصص تروى ومنها ما ذكره الزُّبيدي في (طبقات اللغويين والنحويين) من أنَّ الأولين كانوا يعوِّدون أولادهم على الإعراب، بل ويضربونهم على اللَّحن، ومن ذلك قصة تروى وهي قول عمر بن الخطاب ؓلأبي موسى الأشعري ؓ لما كتب كاتبه: من أبو موسى إلى أمير المؤمنين عمر، فلما قرأها عمر ؓ قال: اضربْ كاتبك سوطا واعزله عن عمله، وقصص أخرى كثيرة أوردها أصحاب التَّراجم والتَّاريخ[9]. وهذا من سماتها أن قُيِّض لها رجال يحمون حدودها، ويذودون عن حياضها، ويصونون بيضتها.

خاتمة: فهذه بعض السِّمات البارزة للّغة العربيّة التي عنَّ لي أنّها تميّزت بها عن غيرها من لغات العالم، والذي يؤسف له في عصرنا أنّ اللُّغة العربيَّة أحيتنا، وأقامت لنا حضارة ضاربة بجرانِها في التَّاريخ العالميّ، وكنَّا من أرقى الأمم العلميَّة والحضارية فلم لبثت ترجع القهقرى حتَّى صرنا نقارنها بلغات لم تظهر إلاّ في قرون متأخرة منفصلة

عن اللّغة اللاتنيّة كالإنجليزية والفرنسية وغيرها، وهانت في نفوسنا لغتنا، فتراخينا في الحفاظ على إرثنا، والسَّعي في تطويره لما أصاب نفوسنا من عُقد تجاه اللُّغة العربيَّة التي اقتنعنا، أو أشربنا هذا الاقتناع بأنّها ل يمكن أن تكون لغة التَّطور والتَّقدّم، جاعلين الحدَّ الجغرافي الذي نشأت فيه سببا لذلك، فأصابنا من الذُّل ما أصابنا، وصرنا مدبرين مقبلين، لسنا ندري إلام نُيَمِّم، فضاعت جهود بحثيَّة كثيرة في المقارنة والمقابلة، ومحاولة تطبيق النتاج الفكري، والأدبي، والعلمي في لغات أخرى على لغتنا، ونسينا أن تلك المقارنات ممّا أضعفها، وزاد من هوانها، فالله الله في هذه اللُّغة الشَّريفة النَّسب، والكريمة الحسب، ولنقم بها قومة تحي فينا تاريخا علميًّا وحضاريًّا، لنزاحم بها ركب التَّطور لعلّنا نبلغ القمَّة. ويظهر من خلال العرض الموجز لهذه السّمات النتائج الآتية:

– للغة العربيّة سمات تميَّزت بها عن جميع لغات العالم، فمقارنتها بغيرها من اللّغات التي لا تضاهيها ضرب من التّنقص، والهضم لحقِّها.

– اللُّغة العربيَّة لغة الوضوح والإبانة اللّذان هما من أميز الصّفات فيها، فهي واضحة مفهمة لا غموض فيها.

– اللُّغة العربيَّة لغة التواصل والعلم، والتَّطور والمرونة.

– اللُّغة العربيَّة لغة الدّين الإسلامي، ولغة القرآن الكريم، وهذا من أميز سماتها.

– اللّغة العربيَّة لها امتداد زمنيٌّ في التَّاريخ، وحفاظ عجيب على أصولها، ومعالمها، كما لم يمنعها ذلك من التَّطور والرُّقي.

– اللُّغة العربيَّة لغة تحي أمَّة ولا تَحيا بها.

– اللُّغة العربيَّة لسان جمع تحت ظلّها كلّ الشعوب، وكافَّة المجتمعات.

مُنافحة عن اللُّغة العربيَّة:

إنَّ حالنا واللُّغةَ العربيَّة اليوم كما قال العلاَّمة محمد سالم ولد عدود الموريتاني: «تسهرُ اللُّغة العربيَّة على بقائنا فنعمل نحن على هدمها

أريدُ حياتَه ويريدُ قتلي عذيرَك من خليلك من مُرَادي[10]»، فهذه قصيدة كتبتها منافحة عن اللُّغة العربيَّة، وسمَّيتُها:

«النَّفْحَةُ الشَّذِيَّة في مدح اللُّغة العربيَّة»

1. من رام عزًّا باذخ العلياءِ فليلتمسه بملّة الحُنفاءِ
2. في منطق العرب الأكارم رفعةٌ قد فاق جودا سادة الكرماءِ
3. وإذا اللّغات تنافست في حسنها فالحسن كلّ الحسنِ للغيداءِ
4. عربيّةٍ ممشوقةٍ ببيانها ومليحةٍ مكحولةٍ بصفاء
5. وهي الشَّريفةُ لا يُدنَّس عرضُها وأميرةٌ في سَدَّة الأمراءِ
6. وهي العزيزة لا يَذِلُّ مريدُهاأجمل بها من غادة هيفاء!
7. حوت العلوم مشاراً معسولةً أكرم بها من روضة غَنَّاءِ!
8. فقهاً، ونحواً، والعلومَ غزيرةً أكرم بها من مورد البُلغاءِ!
9. من رام نطقاً يستقيم بِلَسْنِه فهي الطَّبيبُ ومورد الفُصحاءِ
10. وتسامقت في عِزِّها وشموخها بعلوِّها لمراتب الجَوْزَاءِ
11. وتوسَّعت في جودها وعطائها وبقصرها لَمراتعُ الفضلاءِ
12. وبها حديثُ العاشقين بلاغةً تصفى مشاربُ طالب الإرواءِ
13. لغةٌ حوت دُرًّا وكنزا يُفْتَدَى وتنابتَتْ في شاسع الفَيْفَاءِ
14. إنَّ العلوم تنوَّرت ببريقها وتفاخرت في غير ما استعلاءِ
15. فترى المفسَّر طالبا لعلومهاوهي المَلاَذُ لفَزْعَةِ الأدباءِ
16. وترى المحدِّث يستطيب بنُطْقِها وهي الشّفاء لِلَوْعَة الشُّعراءِ
17. وبها دعاء التَّائبين لربِّهم وبها يؤذن للصَّلا بنداءِ
18. لغةٌ تَسَامت بالقران لناطقٍ ومصونةٌ في روضة العقلاءِ
19. وبها ينال القارئون أجورهم وهي البهاء لحكمة الحكماءِ
20. لغةٌ تَضَوَّع مسكُها بحروفهاأعبق بها من زهرة فيحاءِ!
21. لغة تجلَّت كالجواهر أحرفاً ولها عبيرٌ مبهجُ الأجواءِ
22. يا ناطقاً لا تحقرَّن لفضلها وتنزَّهنْ عن منطق السُّفهاءِ
23. لغةٌ تُغَرِّدُ في المنابر عالياً فبها الحِجاجُ لحُذَّق الخطباءِ
24. يا راكبا هلاً ركبت فبلغَنْ للشانئين لضادنا بعزائي
25. فهي العَقِيْلَةُ محتداً وأصالةً ووسامُ عزٍّ ظاهرٌ للرَّائي
26. زاد العُدَاةُ بريقَها بحروبهم فترفَّعتْ عن سُوقَة الأعداءِ

27. جاءوا بإفكٍ أنّها رجعيَّةٌ أبئس بهم من عُصبةٍ جُبناءِ!
28. فبها قرا ن أحكمتْ آياتهُ وبها التَّعوذُ من ردي الأخطاءِ
29. وبها نسابةُ عُرْبنا في أصلهم وبها سموُّ السَّادة العظماءِ
30. وبها أحاط المصطفى وبلفظها ما كان يعرف صنعة الإملاءِ
31. وجوامعٌ قد أُوتيت بلسانه ما ليس يقدر أفصح الفصحاءِ
32. أدّى الرسالة واستبان سبيلها ميسورةً في غير ما ضرّاءِ
33. يتكلّم العدد القليل مكرراً متواضعا لا ليس للخيلاء
34. يا ربُّ طهّر ألساناً من لَحَنِها وبها قِهم من لُكنةٍ شنعاءِ
35. صلّى الإله على النَّبيِّ صفيِّه ما لاحَ نجمٌ أو خفى بسماءِ
36. يا ربِّ أكرم أنفسا بفصاحة واحم لسانا ألحن اللُّكناءِ

الهوامش:

---

[1]_ ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز، ج3، ص323.

[2]_ مسلم بن الحجّاج، الصحيح المختصر، رقم الحديث: 523.

[3]_ القاضي عياض، الشِّفا، ج1، ص152-153.

[4]_ الشَّافعي، الرِّسالة، ص128.

[5]_البيهقي، شعب الإيمان، ج3، ص210.

[6]_ الشَّافعي، مصدر سابق، ص132

[7]_ موقع مجمع اللغة العربيّة على الشبكة العالمية بمكة المكرمة، ورابط القرار:
http://www.m-a-arabia.com/site/19081.html

[8]_ الزَّمخشري، المفصّل في صنعة الإعراب، ص18.

[9]_ يُنظَر: الزُّبيدي، طبقات اللُّغويين والنَّحويين، ص12-. 13. الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء، ص29-30.

[10]_ محمد سالم ولد عدود، محاضرة عن أهمية اللُّغة العربيَّة عبر قناة اليوتوب، ورابطها:
https://www.youtube.com/watch?v=QBaY4Kd8dEc

قائمة المصادر والمراجع:

1. الشَّافعي، محمد بن إدريس، الرِّسالة، تح: أحمد شاكر. ط3: 1426هـ/2005م، مكتبة التراث، القاهرة.
2. القاضي عياض، عياض بن موسى اليحصبي، الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى، تح: عبد السَّلام المساري. ط1: 1423هـ/2012م، دار ابن حزم، بيروت.
3. ابن عطيَّة الأندلسي، عبد الحقِّ بن غالب، المُحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد السلام محمد. ط1: 1422هـ/2001م، دار الكتب العلميَّة، بيروت.
4. مسلم بن الحجَّاج، المسند الصحيح المختصر، تح: محمد فؤاد عبد الباقي. دط: دت، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
5. البيهقيّ، أحمد بن الحسين الخراساني، شعب الإيمان، تح: عبد العلي حامد+ مختار النّدوي. ط1: 1423هـ/2003م، مكتبة الرشد+ الدّار السلفيّة، الرياض+بومباي.
6. الزَّمخشري، محمود بن عمرو، المفصَّل في صنعة الإعراب، تح: علي بوملحم. ط1: 1993م، مكتبة الهلال، بيروت.
7. الزُّبيدي، محمد بن الحسن بن مذحج، طبقات النَّحويين واللّغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط2: دت، دار المعارف، القاهرة.
8. أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء، تح: عبد الرحيم الطرهوني. دط: 1428هـ/2007م، دار الحديث، القاهرة.
9. مجمع اللُّغة العربيَّة على الشَّبكة العالميّة (2017)، القرار الثَّاني عشر للمجمع، http://www.m-a-arabia.com/site/19081.html
10. محمد سالم ولد عدّود (دت)، محاضرة بعنوان: أهميّة اللُّغة العربيَّة، https://www.youtube.com/watch?v=QBaY4Kd8dEc